رابعة العدوية

شهيدة العشق الإلهي

تعتبر أم الخير بنت إسماعيل المعروفة بـ"رابعة العدوية" من أشهر الصوفيين في الإسلام. تفردت بمكانة سامية لم يصل إليها أحد، فكانت "إمامة" يستفتيها كبار المتصوفين، بل ويتبارك بها البسطاء والمحتاجون كواحدة من أزهد الزهاد.

أفنت حياتها في العبادة والتقوى، وإصلاح النفس وكبح جماح الشهوات، وآثرت أن تضحي بكل شيء دنيوي: ثمناً لارتواء الروح بما رواء اللذة الحسية، فعاشت فقيرة معوزة متقشفة، وانعزلت عن ضجيج الحياة الصاخبة، إلا من مجالس العلم وصحبة الفقهاء العالمين أمثال: حسن البصري التقي الشهير، وشقيق البلخي الصوفي العظيم، وسفيان الثوري المجتهد الكبير، والملك دينار حاكم الكرخ والشاعر البليغ، وذو النون المصري.

كل هؤلاء الأفاضل العظام حضروا مجالسها، ونهلوا من فيض مباحثها ومعارفها في الدين والعلم، فلم يزدهم ذلك إلا تقديراً لها، وتعظيماً لزهدها وتقواها وصلاح دينها.

كان أبوها من موالي آل عتيك.. وُلدت في البصرة في أوائل العصر الهجري، ومات أبوها وهي لم تزل في مقتبل العمر.

وكانت أمها قد ماتت قبله بفترة وجيزة، فتمزق شمل الأسرة التي كانت رابعة تضمهم مع أخواتها الثلاث الأخريات، وذات يوم بينما كانت ذاهبة لقضاء حاجة: عثر عليها أحد اللصوص فسرقها، وباعها بستة دراهم إلى رجل عملت في بيته كخادمة، وكان هذا الرجل قاسياً مجرداً من العطف والإنسانية، أثقل كاهلها بكل الأعمال الشاقة، فكانت رابعة تعيش في البيت ذليلة شقية، لا يكاد يستر جسدها سوى ثوب مهلهل، ولا تنال من الطعام إلا أردأه والذي لا يكفي لإطعام عصفور، حتى النوم لم تكن تهنأ به، حيث كان عليها أن تعمل يومياً من قبل طلوع الشمس حتى ساعات متأخرة من الليل.

وظلت رابعة على هذه الحال، تذوي يوماً بعد يوم، وهي صابرة محتملة، إلى أن حدث لها موقف غريب.

فقد خرجت لشراء شيء للبيت، فرآها رجل، وأخذ يتبعها إلى السوق، فخافت منه، وراحت تتلمس طريقاً للهروب وهي تهرول مسرعة، فزلّت قدمها وسقطت على الأرض، وانكسر ذراعها، ولم تقو على النهوض من شدة الألم.

حينئذٍ رفعت نظرها خاشعة إلى السماء تناجي الله عز وجل قائلة "رباه، قد انكسرت ذراعي، وأنا أعاني الألم وقبله اليُتـــم، وســوف أتحمل كل ذلك وأصبر عليه، ولكن عذاباً أشد من هذا العذاب يؤلـم روحي، ويفك أوصال الصبر في قلبي ونفسي من ريب يدور فـــي خلدي، فهل أنت راضٍ عني يا إلهي، هذا ما أتوق إلى معرفته".

ما كادت رابعة تفرغ من نجواها، حتى أتاها هاتف يثلج قلبـــها، وصوت يقول لها: لك عند الله يا رابعة مرتبة تغبطك الملائكة مـــن أجلها.

فنسيت رابعة آلامها، وعادت إلى دار سيدها آمنة مطمئنة.

ومن يومها أخذت تكثر من صلاتها وقيام الليل، وتؤدي أعمالـــها وهي صائمة.

وذات ليلة فزع سيدها من نومه على صوت يرن فـــي أرجـــاء البيت، فخرج من غرفته يستجلي الأمر، فقادته قدماه إلـــى غرفـــة رابعة، حيث رأى ما أدهشه وحيّر عقله.

رأى رابعة تصلي بخشوع، وهالة من النور تحيط برأسها وهـــي تناجي ربها قائلة: ربي إنك تعلم أن أشد ما أتوق إليه هو عبـــادتك، وتأدية ما لك من حقوق، ولكني أثيرة لا أملك حريتي، فاعذرني يـــا إلهي إذا عجزت عن تحقيق ذلك دون إرادتي.

فبُهت سيدها من هذا المنظر العجيب، وفي اليوم التالي استدعاها وقال لها: أنت حرة طليقة يا رابعة ولك الخيار أن تمكثي هنا، أو تذهبي إلى حيث تشائين.

فاختارت رابعة أن تترك بيت سيدها، فودعته وانطلقت تخلو بنفسها، وانقطعت للعبادة كما كانت ترجو.

وعُرف عن رابعة: أنها كانت تصلي الليل كله، فإذا طلع الفجر غفت قليلاً، ثم ما تلبث أن تنهض فزعة تؤنب نفسها على هذه الهنيهات التي استسلمت فيها للنوم.

وقيل إن رابعة كانت تصلي كل يوم ألف ركعة.

وقيل أيضاً إنها لم تكن ترد سائلاً يأتيها، فكانت تعطي للسائل كل ما تملكه.

وذات مرة دخل حجرتها لص وهي نائمة، فحمل الثياب وكل ما وجد من متاع، وجاء يخرج فلم يجد الباب، فوضع ما يحمله من مسروقات فإذا به يجد الباب، فعاد وحمل المسروقات فاختفى الباب، وهكذا تكرر الأمر حتى سمع هاتفاً يقول له: دع الثياب فنحن لها حافظون وإن كانت نائمة.

وسُئلت مرة: متى يكون العبد راضيا؟ فقالت: إذا سرّته المصيبةُ كما سرتهُ النعمة.

وسئلت مرة أخرى: ما حقيقة إيمانك؟

فأجابت: ما عبدت الله خوفاً من ناره، ولا حباً لجنتـــه، فـأكون كالأجير السيئ، وإنما عبدته حباً وشوقاً إليه.

مرضت ذات يوم، فلما ذهب حسن البصري للاطمئنان عليـــها، فوجئ بوجود رجل أمام بابها يبكي، فسأله مندهشاً: ما الذي يبكيـك؟ فأجاب الرجل: أحضرت كيساً من الذهب لرابعة، لا أدري هل تقبلـه أم ترفضه، فأرجوك أن تدخل معي وتقنعها بقبوله. فلما حدثها حسن البصري في هذا الموضوع، قالت: تعلم يا حسن أن الله يرزق حتـى عباده الذين هم عنه لاهون، لكني لم أتوجه لغير الله منذ اليوم الـذي أدركت فيه قدرته الإلهية، فكيف أستطيع أن أقبل هدية هذا التـاجر، وأنا لا أعلم هل اكتسب ماله من حلال أم حرام؟

وهناك حادثة مشهورة عن رابعة، فقد زارها يوماً أحد التجـــار، فوجد دارها مخرّبة مدمرة تحتاج إلى إصلاح وتعمـــير، فعـرض عليها أن تنتقل إلى إحدى دوره مؤقتاً إلى أن يتم إصـــلاح البيـت، فقبلت رابعة وانتقلت إلى الدار الجديدة التي كانت داراً مرفهة: تزين جدرانها الزخارف، وتمتلئ حجراتها بالأمتعـة الناعمـة ومظـاهر الثراء والنعيم، ولما كانت عين رابعة لم تتعود أن تقع علـى هـذه الأشياء: نظراً لعيشتها الزاهدة المتقشفة، فقد أطـالت النظـر فـي الجدران المزينة بالأشكال المبهجة والزخارف، فلما وجدت نفســها

سارحة بين الألوان، أخذت تؤنب نفسها، ثم خرجت على الفور من هذه الدار، وأقسمت ألا تعود إليها حتى لا يشغلها شيء عن العبادة.

وقد كانت رابعة ــ رضي الله عنها ــ كثيرة البكاء من خشية الله، وكانت إذا سمعت ذكر النار تصاب بالإغماء.

وقد عُرف عنها أنها صاحبة كرامات، ومن أولياء الله الصالحين، وقيل يوما إنها انتوت أن تحج بيت الله، وعندما همت بالذهاب: رأت الكعبة قادمة نحوها عبر الصحراء، فقالت رابعة: لا أريد الكعبة، ولكن: رب الكعبة.

ويروى أيضاً أنها كانت يوماً في دارها تتعبد، وجاءها صالحان يزورانها، ولم يكن لديها سوى رغيفين، فعندما همت بتقديم الرغيفين لهما، إذا بالباب سائل يطرقه، فأعطته الرغيفين، ثم قالت: يا رب! أنت قلت الحسنة بعشرة أمثالها، وأنا من أجلك أعطيت الرغيفين، فاعطني حتى أكرم ضيفيّ.

ولم تكد رابعة تنهي كلامها حتى طُرق الباب، وإذا بخادمة تعطيها صرة، فلما فتحتها وجدت بها عشرين رغيفاً.

ويروي الثقاة عن رابعة: أنها رأت الرسول عليه الصلاة والسلام يُسلم عليها وسألها: يا رابعة، هل تحبينني؟ فأجابت مستفهمة: وهل هناك من لا يحبك؟ إنما حبي لك قد ملأ قلبي، فليس فيه مكان لأن أحب غيرك.

وسئلت يوماً: هل تحبين الله كثيراً؟ فقالت: بلا ريب. فقيل لـــها: وهل تعدين الشيطان عدواً لك؟ فأجابت: إن محبـــة الله قـد مـلأت أرجاء قلبي، حتى لم يعد فيه متسع لعداوة الشيطان.

وكانت تناجي الله عز وجب بهذه الكلمات:

إلهي أحبك لوجهين: لحبي وهيامي لك، ولأنـــك أهـلٌ للمحبـة والعبادة، فباشتياقي ومحبتي أذكر اسمك، وأُشـــغل بذاتـك العليـة، وبأهليتك للمحبة أنال من لدنك مرتبة المشاهدة، فلا يقـــف حمـدك وثناك لأمر منهما، وإنما لك الشكر ومنك الفضل للحالين.

ومن بين دعواتها: دعاء اعتادت أن تردده في الليل، وفيه تقول:

إلهي! أنارت النجوم، ونامت العيون، وغُلّقت الأبواب، وخلا كـل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك.

ومن دعائها أيضاً: إلهي، إذا كنت أعبـدك خوفـاً مـن نـارك فاحرقني بها، وإذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمنـــي مـن مشاهدة وجهك.

واشتهرت رابعة بأقوالها في محبة الله، فكانت تنشد الشعر معبرة عن فيض مشاعرها وقوة وجدها، ومن ذلك قولها:

وإني جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانـــس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيســـي

وأنشدت في أبيات أخرى، تعبر عن منتهى أملها في الوصل وانقطاعها عن الوجود، بعد أن أصبحت كلها له، فأنشدت تقول:

أحبك حبين: حب الهوى ... وحباً لأنك أهلٌ لذاك

فأما الذي هو حب الهوى ... فذكر شغلت به عن سواك

وأنت الذي أنت أهل له ... فكشفك للحجب حتى أراك

فما الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاك

وقد تفردت رابعة في محبتها للخالق عز وجل، وأصبحت رائدة لمذهب العشق الإلهي، الذي انتهجه بعدها عدد من الصوفيين الزهاد، ولكن بإجماع الآراء: فإن أحداً لم يبلغ ما بلغته رابعة في العشق الإلهي، حتى أن ابن الفارض المتوفى بعدها بعدة قرون (عام ٦٣٢ هجري) والملقب بشيخ العشاق وإمام المحبين، لم يزد شيئاً عما قالته رابعة، بل إن ذا النون المصري الذي عاصر رابعة، وهو المتصوف الخاشع الزاهد، كان من أوائل المتأثرين بمذهب رابعة، فكان يأخذ عنها الأحاديث، ويستمع إليها: وهي تناجي ربها، وتنشد الأشعار فيه. وإذا كان ذو النون من أوائل من شكّلوا فكرة الصوفية وأول من وضع تعريفات للوجد والسماع، فإن رابعة هي إمامة العاشقين في الإسلام.

وقد جعل الناس من بيت رابعة مزاراً مباركاً، فكانوا يتوافدون إليها، فينهلون من حكمتها، أو تفيض عليهم كراماتها، أما أهل العلم والمعرفة من الزهاد والمتفقهين: فقد كانوا لا ينقطعون عنها.

وصفها مرة سفيان الثوري، العالم الورع الفقيه الذي أُطلق عليه لقب "أمير المؤمنين في الحديث"، فقال: هي المؤدبة التي لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها. ويحكى أنه كان يوماً عندها فأخذا يصليان حتى انبلج الفجر، وفي الصباح وجدها تدعو لصيام اليوم، شكراً لله على ما هيأ لهما من الصلوات. أما حسن البصري الفقيه الثقة الناسك، صاحب المواعظ المشهورة وأول من وضع أصول علم التصوف، فقد ذهب إليها يوماً بعد صلاة الظهر، فأخذا يتحدثان عن المعرفة بالله، وكانت قد وضعت على النار قدراً فيه شيء من اللحم، لكن الحديث عن الله شغلهما عن متابعة النار وطهي اللحم، ثم جاءت صلاة لمغرب وبعدها العشاء، فأخذا يصليان ويتعبدان، فلما فرغا، تذكرت رابعة ما في القِدر من اللحم، فأتت به إلى حيث كان اللحم قد طُهي بقدرة الله فأكلاه، وقال الحسن: فأكلت، وكان للأكل طعم لم أتذوق مثله قط.

وهناك قصة أخرى تقول: إن رابعة صعدت جبلاً، فأقبلت الغزلان تطوف بها وتستأنس، ثم جاء الحسن البصري، فما إن رأته الغزلان حتى فرت هاربة، فقال لها: يا رابعة، أرى الغزلان فرّت لما رأتني ولم تفرّ منك. فسألته رابعة عما تناول من طعام قبل حضوره، فأجاب أنه تناول طعاماً بالزيت. فقالت رابعة: وكيف تريد منها إذن أن لا تفر منك وأنت تأكل من دهنها؟

ويروى أن الحسن البصري توجّه مع بعض أصحابه إلى رابعة وكان الوقت ليلاً، فاحتاجوا إلى مصباح، وعندئذٍ وضعت رابعة إصبعها في فمها ثم أخرجته فظل يضيء لهم مثل النور حتى مطلع الفجر.

ويحكى أن رجلاً جاء رابعة فسألها: إني أكثرت من الذنوب والمعاصي، فلو تبت، هل يتوب الله عليّ؟ فقالت: لا، بل لو تاب عليك لتبت.

ويروى أن مالك بن دينار المتقشف الزاهد المعروف أنه قال: ذهبت إلى رابعة فوجدتها تشرب من جرة مكسورة، وقد فرشت على الأرض حصيرة قديمة بالية، ومخدتها من الطوب، فقلت لها وقلبي يبكي ألماً من حالها: يا رابعة، إن لي أصدقاء أغنياء، فإن سمحت سألتهم أن يعطوني شيئاً من أجلك. فأجابت: لقد أسأت القول يا مالك، إن الله تعالى هو الرزاق، أفمن يرزق الأغنياء ولا يرزق الفقراء؟فإذا كانت هذه المشيئة، فنحن نرضى عنها كل الرضا.

ولقد ملكت رابعة قلوب زهاد عصرها، فكانوا يولعون بوعظها ودعائها، ويتزودون بمعارفها وتسطع عليهم أنوار محبتها الإلهية.

وهناك العديد من الروايات التي تتحدث عن الإمكانيات الخارقة، التي وهبها الله القادر على كل شيء لهذه العابدة الناسكة، منها هذه القصة العجيبة، فقد روي أن رابعة ذهبت إلى الحج مع جمع من

الناس، وفي أثناء الطريق نفق حمارها ومات، فتطوع من كان معها أن يحملوها معهم على دوابهم، ولكن رابعة أبت، وقالت لهم: إنها لما نوت أن تحج، لم يكن اعتمادها عليهم، بل على الله. فرحلوا وتركوها في مكانها. فقالت تناجي ربها: أهكذا يفعل الملوك بالمستضعفين من عبيدهم؟ ثم أخذت تفند له حالها وترجوه أن يبت في أمرها، فما كادت تنتهي من كلامها حتى نهض الحمار حياً يسعى، فركبته وسارت في طريقها تلحق بالقافلة.

ورغم ما تمتعت به رابعة من كرامات وخوارق، ورغم درجتها العالية في الوصال، إلا أن ذلك لم يشغلها أبداً عن العبادة والاجتهاد ونبذ الحياة الدنيوية.

ولما أحست رابعة بدنو أجلها: نادت خادمتها "عبدة" وقالت لها: يا عبدة لا تخبري أحداً بموتي، وكفنيني في جُبَّتي هذه. فلما ماتت فعلت عبدة ما أمرتها به.

وماتت رابعة وعمرها يتعدى الثمانين، وأصبح قبرها مزاراً يقصده الناس يتلمسون بعضاً من الكرامات والخوارق.

وتحكي عبدة خادمتها، التي قيل عنها إنها من خير إماء الله وكانت متعبدة خاشعة: رأيت رابعة بعد موتها بحوالي سنة في المنام، وكانت تلبس حُلة من إستبرق خضراء، وخماراً من سندس أخضر لم أر شيئاً قط أحسن منه، فقلت: يا رابعة: أين هي الجبة

التي كفنّاك فيها والخمار الصوف؟ قالت: إنهما والله نُزعـــا منـــي، وأُبدلت بهما ما ترينه عليّ، وطويت أكفاني وختم عليها، ورُفعـــت إلى علّيين ليكمل لي ثوابها يوم القيامة. فقلت لها: لهذا كنت تعملين في الدنيا؟ فقالت: وما هذا عندما رأيت من كـــرم الله عـــز وجـــل لأوليائه. فقلت: مريني بشيء أتقرب به إلى الله عز وجـــل، قـــالت: عليك بكثرة ذكره.

تذكر بعض الروايات أن رابعة كانت ــ قبل أن تزهـــد الدنيـــا وتتفرغ للعبادة ــ تتلهى بالمتع الرخيصة، وتتهتك في حياتها ممتهنة الرقص والغناء تصل لياليها بالخمر والأقداح، ولكن هذه الروايـــات ليس لها سند حقيقي، فلقد اختلط الخيال بالواقع في قصة رابعة.

صحيح أنها امتهنت في بداية الأمر العزف على النـــاي، لكـــن كمهنة مباحة غير مبتذلة وسبباً للترزق، وعندما توغلت رابعة فـــي طريق الزهد: امتنعت عن ذلك وتفرغت نهائياً للنسك.

ومن يتأمل هذه الروايات التي تصف رابعة وقد انغمســـت فـــي الشهوات الدنيوية، ترتوي من المتع المحرمة، لاهية وعابثة وأثيمـــة، حتى قابلها أحد النساك فأرشدها إلى طريق الله، يجدها تتماثل بشـــكل ملفت للأنظار مع قصة تاييس الغانية المصرية المشـــهورة، التـــي كانت أنوثتها الطاغية فتنة لكل من تقع عيناه عليها، والتـــي أتقنـــت

وبرعت في فنون الغرام، حتى ركع تحت قدميها أعز الرجال، ثم أنهت حياتها في أحد الأديرة: زاهدة في كل ملذات الحياة.

ولعل تاييس كشخصية خلابة بكل ما تحمله من عمق فلسفي، هي التي أوحت إلى البعض باقتباس قصة حياتها ومحاولة مزجها بقصة رابعة نظراً لاشتراكهما في نفس النهاية.

لكن الثابت أن رابعة لم تكن في يوم من الأيام ضالة أو خاطئة، لقد كانت رضي الله عنها مثالاً نادراً للتصوف والهد والخشوع.

قضت معظم حياتها عابدة راهبة في محراب الحب الإلهي حتى توفيت حوالي عام ١٣٥ هجري، بعد أن أفنت حياتها في التقوى وإصلاح النفس والرقي الروحي.

obeikandl.com